مجلة الجامعة الإسلاميَّة
للغة العربيَّة وآدابها

مجلة عِلميَّة دَوْريَّة مُحكمة

العدد : 15
يناير - مارس 2025م

الجزء 2

١٣٨١
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٣ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٧٦

النسخة الإلكترونية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٤ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٨٤

الموقع الإلكتروني للمجلة

http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة عبر المنصة الإلكترونية

البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء الباحثين
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

د. تركي بن صالح المعبدي
(رئيس هيئة التحرير)
أستاذ النحو والصرف المشارك بالجامعة الإسلامية

د. خليوي بن سامر العياضي
(مدير التحرير)
أستاذ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبد الرزاق بن فراج الصاعدي
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالرحمن بن دخيل ربه المطرفي
أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية

أ.د. الزبير بن محمد أيوب
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية

د. مبارك بن شتيوي الحبيشي
أستاذ البلاغة المشارك بالجامعة الإسلامية

د. محمد بن ظافر الحازمي
أستاذ اللسانيات المشارك بالجامعة الإسلامية

د. عبد المجيد بن عثمان اليتيمي
أستاذ أصول اللغة المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالله بن عويقل السلمي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. علي بن محمد الحمود
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. عبد الرحمن بن مصطفى السليمان
أستاذ اللغات والآداب السامية والترجمة بجامعة لوفان – بلجيكا

أ.د. علاء محمد رأفت السيد
أستاذ النحو والصرف والعروض بجامعة القاهرة – مصر

أ.د. سعيد العوادي
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاضي عياض – المغرب

د. الزبير آل الشيخ مبارك
(رئيس قسم النشر)

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد بن يعقوب التركستاني
أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

أ.د. تركي بن سهو العتيبي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. سالم بن سليمان الخماش
أستاذ اللغويات بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. ناصر بن سعد الرشيد
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود

أ.د. صالح بن الهادي رمضان
أستاذ الأدب والنقد . تونس

أ.د. فايز فلاح القيسي
أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة الإمارات العربية المتحدة

أ.د. عمر الصديق عبدالله
أستاذ التربية وتعليم اللغات بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم

د. سليمان بن محمد العيدي
وكيل وزارة الإعلام سابقا

قواعد النشر في المجلة (*)

- أن يكون البحث جديدا؛ لم يسبق نشره.
- أن يتسم بالأصالة والجدة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- ألا يكون مستلا من بحوث سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلمي الأصيل، ومنهجيته.
- أن يشتمل البحث على:

- عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.
- مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربية والإنجليزية.
- كلمات مفتاحية لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربية والإنجليزية.
- مقدمة.
- صلب البحث.
- خاتمة تتضمن النتائج والتوصيات.
- ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.
- رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.

- في حال (نشر البحث ورقيا) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نشر بحثه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيا أو إلكترونيا، ويحق لها إدراجه في قواعد البيانات المحلية والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحق للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنشر في المجلة – في أي وعاء من أوعية النشر – إلا بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
١)	**منهج التحليل الإعرابي عند الأصبهاني في كتابه إعراب القرآن** د. عبد اللطيف جعفر عبد اللطيف الريح	٩
٢)	**الحمل على النظير بين بابي الجزم والجر وأثره في الحكم النحوي -دراسة أصولية نحوية** د. أريج بنت عثمان بن إبراهيم المرشد	٦١
٣)	**من بلاغة الإنشاء والخبر في الجواب النبوي على مسألة الأعراب** د. أسماء بنت أحمد بن مسفر الوادعي	١١٣
٤)	**خطاب التجديد في الفكر البلاغي عند الشيخ محمد أبي موسى -ملامحه وتجلياته** د. يوسف طفيف مبارك الدعدي	١٥٣
٥)	**المثل في شعر هدبة بن الخشرم دراسة دلالية تركيبية تناصية** د. نوال عبدالله إبراهيم يوسف الزهراني	٢٠٣
٦)	**مفهوم الشعر ووظيفته عند ابن المعتز من خلال كتابه طبقات الشعراء** آمال بنت يوسف المغامسي	٢٤٥

م	البحث	الصفحة
٧)	**البناء التقابلي في تشبيه الوحي بالمطر في الخطاب القرآني** د. لطيفة بنت سعود العصيمي	٢٩٩
٨)	**حيلة المرأة في الحكاية الشعبية السعودية (كتاب أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب أنموذجا) مقاربة في النقد الثقافي** د منال بنت سالم القثامي	٣٥١
٩)	**المقصدية في ديوان أكاد أراني) لشقراء المدخلي دراسة تداولية** د. عائشة صالح الشمري	٣٩٧
١٠)	**دلالات المكان في شعر ياسر الأطرش -دراسة نقدية** د. حصة فهد السبيعي	٤٣٩
١١)	**آليات الخطاب النقدي في كتاب اتجاهات الشعر العربي المعاصر الإحسان عباس- دراسة في نقد النقد** د. عبدالعزيز بن عياد المطيري	٤٨٣
١٢)	**التحليل الأنثروبولوجي عند الناقد ياروسلاف ستيتكيفيتش** د. ماجد بن أحمد الزهراني	٥٢٥

مجلة الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها– العدد: ١٥ | الجزء: ٢

البناء التقابلي في تشبيه الوحي بالمطر في الخطاب القرآني

The Contrastive Structure in Comparing Revelation to Rain in the Qur'anic Discourse

د. لطيفة بنت سعود العصيمي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بجامعة أم القرى

البريد الإلكتروني: khademat_addeen@hotmail.com

DOI:10.36046/2356-000-015-019

ملخص البحث

يتناول البحث البناء التقابلي في تشبيه الوحي بالمطر، حيث تكون هذه الصورة البيانية مجزأة في الخطاب القرآني، ومكتملة في الحديث النبوي، وعند مقابلة الصورة في القرآن والحديث فإنها تكون واحدة لا تتناقض أو تختل، مما يعني أن هناك نوعا من التشبيه يشبه قطع البازل، التي تعطي كل قطعة منها دلالة مستقلة، وتعطي مجتمعة دلالة كلية أخرى، ويستغرق هذا البناء نزول القرآن كاملا، ويهدف البحث إلى الكشف عن هذه العناصر واكتشاف الصورة العميقة للوحي والمطر على مستوى المفردات أو الجمل، من خلال استقراء تلك المواضع والمقابلة بينها عبر المنهج التأويلي التقابلي، للوصول لاشتغالات التشبيه الخفية في السياق النصي، فجاء التمهيد ليتناول التقابل ومفهومه وعلاقته بالتشبيه، والتقابل بين الصورة الحديثية والصورة القرآنية، وبنية الصورة المجزأة في الخطاب القرآني، ثم المبحث الأول وفيه تقابل المفردات على المستوى اللفظي والصرفي، والمبحث الثاني وفيه تقابلات السياق، ويتناول تباشير القدوم وإرهاصات البدء، وتقابلات المحل، وتقابلات الأثر، ثم المبحث الثالث وفيه التقابل العكسي بين الوحي والمطر، والصورة المضادة كما يرسمها الخطاب القرآني، ثم الخاتمة، ومن أهم النتائج أن التقابل يجمع عناصر التشبيه المتفرقة في الخطاب بقرائن ذهنية، وخلفيات معرفية وثقافية، وأن الصورة القرآنية والحديثية متكاملة وإن تفرقت في السياق، وأن الصورة الذهنية قد تكون سابقة للبنية اللفظية عند المتلقي.

الكلمات المفتاحية: التشبيه، التقابل، الوحي، المطر، السياق.

Abstract

The study addresses the contrastive structure in the comparing between revelation and rain, highlighting how this metaphor appears in a fragmented form within Qur'anic discourse but is presented in a complete and coherent form in the Prophetic hadith. When the two are brought together—Qur'anic and Prophetic imagery—they form a single, harmonious picture, with no contradiction or inconsistency between them. This suggests a type of simile that resembles pieces of a puzzle, where each individual piece carries an independent meaning, while collectively they convey a broader, integrated meaning. This structure unfolds over the course of the complete revelation of the Qur'an. The study aims to uncover these elements and reveal the deeper image of revelation and rain—whether at the level of words or sentences—through examining the relevant passages and comparing them using a contrastive hermeneutic approach, in order to uncover the hidden workings of the simile within the textual context. The introduction addresses the concept of contrast, its relationship to simile, the contrast between the Prophetic and Qur'anic imagery, and the structure of the fragmented image in Qur'anic discourse. The first chapter explores lexical and morphological contrasts at the word level. The second chapter focuses on contextual contrasts, including the heralds of arrival, the preludes of initiation, contrasts of place, and contrasts of effect. The third chapter examines the inverse contrast between revelation and rain, and the counter-image as depicted in Qur'anic discourse. The conclusion highlights key findings, most notably that contrast brings together the scattered elements of the simile within the discourse through cognitive cues and cultural and epistemological backgrounds. It also affirms that the Qur'anic and Prophetic images are complementary, even if they appear in separate contexts, and that the mental image may precede the verbal structure in the mind of the recipient.

Keywords: comparing, contrast, revelation, rain, context

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فالصورة البيانية شكل من أشكال الحجاج البلاغي، إذ يتأتى الإقناع من خلال ربط الصور ببعضها، أو الوقوف على أغوار تحليل الصورة، لا سيما إذا اشتغلت استراتيجيات التشابه والاختلاف داخل النص.

والمتأمل في الخطاب القرآني يجده مليئا بالصور البيانية المعجزة، التي ترسم المراد، وتعطي الفكرة، وتسبر العمق بأوجز عبارة، لاسيما وهو كتاب هداية وإرشاد، يخاطب العقول على اختلاف مواردها ومصادرها، لكن ثمة صورة بيانية مختلفة في بنائها، وسبك معانيها.

مشكلة البحث وأسئلة الدراسة:

لا عجب أن نجد في الخطاب القرآني صورة بيانية معجزة، بيد أن ثمة شكلا من أشكال الصور لا نكاد نجده إلا في القرآن الكريم، خلاف المألوف في بناء التشبيه، وهي الصورة البيانية المجزأة، المنجمة على مراحل نزول الوحي، بحيث لا تكتمل إلا باكتمال قراءة هذا الخطاب، فسياقها هو القرآن كاملا، مع وجود القرائن الدالة على وجودها، والمشيرة إلى فحوى حدودها، متجلية في تشبيه الوحي بالمطر، وهذه الصورة قد وجدت مكتملة في الحديث النبوي: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا.....) وعند مقابلتها بالخطاب القرآني تظهر بعض الإشكالات التي تنبثق منها أسئلة البحث:

١. ما مدى ارتباط الصورة القرآنية بالصورة الحديثية؟

٢. هل يمكن أن ترسم الصورة التشبيهية عبر استراتيجية التقابل؟

٣. كيف يبنى التشبيه من عناصر متفرقة في السياق؟

٤. ما دلالة ارتباط آيات نزول الوحي بآيات نزول المطر؟

٥. هل يمكن بناء التشبيه عبر استراتيجية البازل؟

فجاءت هذه الدراسة موسومة بعنوان: (البناء التقابلي في تشبيه الوحي بالمطر في الخطاب القرآني).

منهج البحث:

يقوم البحث على استقراء مواضع آيات نزول الوحي وآيات نزول المطر، والمقابلة بينها عبر المنهج التأويلي التقابلي، للوصول إلى اشتغالات التشبيه الخفية في السياق النصي، وهذا المنهج كما يعرفه الدكتور محمد بازي يقوم على بيان المعنى وتفهيمه، "عبر إحداث التقابل (التواجه) بين المعاني والعناصر بما يوضحها أكثر، لأن التقابل حاصل في التفكير المنتج للغة، وفي انتظام الكلمات والمعاني، ويجليه التقابل بمستوياته الكثيرة، ومظاهره التي ينفسح لها ذكاء المتفهم واجتهاده"(١).

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من اتصالها بالخطاب القرآني وفهمه، وتجلية الملمح البياني في التشريع الرباني، من خلال فهم التشبيه، وإظهار أساليب التشبيه الخفية، التي تسهم في تماسك النص، وتنفي التناقض المحتمل بين عناصر التشبيه المتفرقة في

(١) ينظر: محمد بازي، "نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، (ط٢، عمان – الأردن، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م)، ص ٤٦٤.

الكتاب العزيز، فإن التشبيه يقوم على أركان معلومة، من المشبه والمشبه به ووجه الشبه والأداة، ومحصلة ذلك صورة ذهنية قائمة تحقق المراد، والوصول إلى هذه النتيجة من خلال التشبيه لا يعني الرصف المعهود في بناء التشبيه، فهناك بناء تقابلي لهذه العناصر يصل بالمتلقي إلى الصورة النهائية ذاتها، مع ما يضيفه إليها من جوانب حجاجية إقناعية وجمالية ترتبط بهدايات الحكمة من نزول الوحي.

الدراسات السابقة:

تقدمت جهود عظيمة في خدمة كتاب الله تعالى، خاصة ما يتعلق بالجوانب البيانية، إلا أن فكرة البحث التي تقوم على مفهوم التأويل التقابلي لبنية الصورة البيانية لم تعط حقها من البحث، فقد وجدت مقالا يتحدث عن المطر ونزول الوحي، بعنوان: (دلائل الوحي في إنزال المطر)، نشر في مجلة رواء، في العدد الثالث، يونيو ٢٠٢٠م، لعمر النشيواتي، ذكر المقال لمحات في أوجه التشابه بين المطر والوحي، وما يتصل بهما، ولم يشر المقال إلى التشبيه الضمني أو ظاهرة الاقتران،

وإن كان هذا المقال يتقاطع مع هذه الدراسة في الجمع البياني بين المطر والوحي، إلا أن الفكرة البحثية التي قامت عليها الدراسة تختلف كثيرا عن فحوى المقال، فهي تعنى بالبناء التقابلي في صورة بيانية واحدة، أي أنها تقدم قراءة لنوع من التشبيه غير مألوف، تقابل بينه وبين الصورة ذاتها في الحديث النبوي، كما أنها تغوص في مستوى عميق للتشبيه لا يقف عند حدود التأملات السياقية، فالدراسة تبدأ بالمستوى الصرفي واللغوي، وتنتهي بمفهوم عكس الصورة.

ولم أقف على دراسة علمية تناولت هذا المفهوم والله تعالى أعلم.

وبعد النظر والتأمل اقتضت طبيعة الدراسة أن يكون تقسيم البحث إلى مقدمة

وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، اشتملت المقدمة على مشكلة البحث وأسئلته وأهمية الدراسة والمنهج المتبع والدراسات السابقة، ثم التمهيد يتناول التقابل ومفهومه وعلاقته بالتشبيه، والتقابل بين الصورة الحديثية والصورة القرآنية، وبنية الصورة المجزأة في الخطاب القرآني، ثم المبحث الأول وفيه تقابل المفردات على المستوى اللفظي والصرفي، والمبحث الثاني وفيه تقابلات السياق، ويتناول تباشير القدوم وإرهاصات البدء، وتقابلات المحل، وتقابلات الأثر، ثم المبحث الثالث وفيه التقابل العكسي بين الوحي والمطر، والصورة المضادة كما يرسمها الخطاب القرآني، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج.

التمهيد

جرت العادة في بنية التشبيه أن يضم السياق البياني المشبه والمشبه به، حاملا معنى الأداة ووجه الشبه، أو مشيرا إليهما، لكن المتأمل في طريقة اشتغال التشبيه في النص، سيجد أفقا واسعا للتشبيه، لا نميل إلى تسميته ضمنيا، لعدم خصوصية الوصف، فالاستعارة والكناية وبعض المجاز تتضمن التشبيه!

وحقيقة التشبيه تكمن في انعكاس صورة ذهنية على النص، تهدف إلى تقريب المعنى للمتلقي، وأصل التشبيه نابع من بنية ذهنية، وإلا كيف يدرك العقل علاقات التشابه والاختلاف؟!، فالعقل البشري مجبول على الربط بين الأشباه والنظائر، مهما تباعدت أطرافها، واتسعت سبل إدراكها.

والتقابل هو: محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها ببعض "وجها لوجه"، لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، أو دلالي أو تأويلي[1]، وهو بهذا المعنى لا يعني التضاد فقط، فعند القول بتقابل المطر والوحي فهذا ليس تضادا أو طباقا، فالتقابل يعني مواجهة النصوص ببعضها حيث تحصل كيمياء التأويل، وتجدر الإشارة إلى أن صاحب نظرية التأويل التقابلي هو الناقد المغربي الدكتور محمد بازي وفقه الله، في كتابه المبارك "نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، ومفهوم هذه النظرية "له قدرة فائقة على التشعب إلى مفاهيم إجرائية أخرى، وهذا المفهوم مؤشر قوي على أن إجراءات تأويلية التقابل تستطيع النفاذ إلى تفاصيل الظاهرة النصية والخطابية، وعلى التموضع المنهجي المناسب، والمتلائم مع خاصياتها ومميزاتها"[2].

---

(١) ينظر: محمد بازي، "نظرية التأويل التقابلي"، ص ٤٦٧

(٢) د. السعيد ضيف الله، "نظرية التأويل التقابلي، الانبثاق التصوري وآليات التجسيد النصي، =

وقد يكون التقابل إسناديا أو تراتبيا أو انعكاسيا وغيرها، فالبلاغة العربية ذات أساس تقابلي، بل إن التفكير يقوم على بنى تقابلية، فكل لفظ يستدعي في الذهن ما يقابله، معاني التشبيه تستدعي صورة ذهنية سابقة، قد تكون مكتملة، وقد يصبح التشبيه ذا دلالة جزئية، فعند القول مثلا: فلان كالأسد، ينصرف الذهن إلى معنى الشجاعة، في حين أن التقابل الذهني يحدث بين فلان والأسد في كل شيء، هكذا يدل اللفظ دلالة مطابقة، فلماذا اختار المتلقي معنى الشجاعة من كل المعاني المتضمنة في لفظ الأسد؟، ذلك أن صورة الأسد الذهنية هي الشجاعة والإقدام ورباطة الجأش، وليس السبع المعروف، ولا حقيقة الحيوانية، تحددها مسارات معرفية وخلفيات ثقافية، فالأسد حيوان شجاع، وفلان رجل شجاع، الأسد وفلان كلاهما شجاع، إذن فلان أسد، وهذه من أقوى قرائن علاقات التشبيه، القرينة الذهنية ذات البنية الثقافية والمعرفية.

ويأتي تشبيه الوحي بالمطر نصا في الحديث النبوي، في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي

=

رؤية في مشروع الباحث المغربي محمد بازي"، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد ٣، العدد ٨، ديسمبر، ٢٠١٨م.

أرسلت به)[1]، ففي الحديث النبوي تشبيه الهدى والعلم الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر بتبليغه إلى الناس، وانقسام الناس عليه، بين من انتفع ومن لم ينتفع ومن صد وتكبر وتجبر، تشبيه ذلك بالمطر النازل من السماء، وانقسام الأرض عليه، بين أرض قبلت الماء، فأنبتت وأثمر فيها الماء، وبين من أمسكت الماء فانتقل نفعه إلى غيرها، وبين من سلكها الماء دون أثر، (الخطاب النبوي هنا صورة كلية تفضي إلى جزئياتها، لتشكل مشهدا متكاملا)[2]، بدءا بفعل النزول، حتى الاستقرار في الأرض، والصورة التمثيلية في هذا الحديث وردت في سياق واحد، فيمكن الكشف بسهولة عن عناصر التشبيه، والعلاقات البيانية في تلك العناصر، لكن ماذا لو كانت عناصر التشبيه مثل قطع البازل! كل قطعة تحمل دلالة نفيسة، إلا أن الصورة كاملة لا تظهر إلا باجتماع تلك القطع، وهذا هو شكل التشبيه في الخطاب القرآني، يأتي أحيانا عبر إستراتيجية البازل، التي تعني ترتيب القطع لتكتمل الصورة، إلا أن كل قطعة قائمة بذاتها، ومكملة مع غيرها، فالآيات القرآنية تشير إلى هذه الصورة البيانية في سياقات عدة، تفصل بينها مساحات زمانية، أي أن عناصر التشبيه متفرقة في الخطاب القرآني كاملا، وعند استقرائها وجمعها تظهر تلك الصورة البليغة التي وردت في النص النبوي، فآيات الوحي المشبه بالمطر المثمر تحمل دلالات في سياقها، ودلالات عند اجتماعها مع مثيلاتها، بحيث تعطي تلك الأجزاء صورة كلية للوحي والمطر، كما تظهر دقة النظم القرآني في رسم الصورة التمثيلية بأبعاد عميقة،

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، تعليق: العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز والعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، (ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م)، ١: ٣٠٨.

(٢) د. عريب محمد عيد، "الخطاب النبوي خريطة البيان العربي، دراسة في اللسانيات النفسية والاجتماعية"، (ط١، عمان – الأردن، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م)، ص ٢٣٩.

دون اختلال في المعنى، أو تناقض في الفهم، فترتيب أجزاء القرآن سر بلاغته، وما يعرف بعلم المناسبات القرآنية وهو: (علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال)[١]، والمتأمل في بناء تشبيه الوحي بالمطر، يجد أن الآيات الدالة عليهما إما أن تكون متجاورة، أو تكون في إطار السورة الواحدة، أن يحصل بينهما تقابل في مواضع متفرقة عند جمعها، فالصورة التي يرسمها القرآن للمطر والوحي صورة واحدة، تعقد التشبيه بين المطر بكل ما فيه وما يؤول إليه وبين الوحي، فعند مواجهة النصوص بعضها ببعض تظهر المعاني عبر إستراتيجية التقابلات، فصورة المطر والوحي ذات بناء تقابلي، تتواجه فيه عناصر النص محدثة حرجة نامية تولد المعاني، حيث إن بلاغة التقابل النصي تكمن في (إحكام صناعة النص باعتماد بنى تقابلية ملفوظة أو ملحوظة)[٢]، وفي المباحث التالية تفصيل لهذا التشبيه في الخطاب القرآني.

(١) برهان الدين البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، (ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٣٢هـ)، ١: ٥.

(٢) محمد بازي، "نظرية التأويل التقابلي"، ٤٣٦.

المبحث الأول: التقابل في المفردات

١. التقابلات الصرفية

الكلمة هي المكون الرئيس في النص، وهذه الكلمة ذات معنى في نفسها ومعنى في سياقها تحقق بذلك اتساق النص وإحكام بنيته، والتقابل بين المطر والوحي يأتي على كل مستويات التقابل بدءا بالكلمة المفردة، ثم التراكيب الجملية في المساق الداخلي ثم السياقات الخارجية.

والمطر والوحي كلاهما ينزل من علو، فناسب أن يكون الفعل الدال على ذلك هو "نزل"، (ونزل من علو إلى سفل....وأنزل الله الغيث وأنزل الكتاب ونزله)[١] وجاء ذكره في القرآن الكريم بتصريفات عدة، وذكر هذه الصيغ على وجه الخصوص له دلالات عميقة، تسهم في رسم الصورة الكلية للمطر والوحي، فالله سبحانه وتعالى وصف كتابه الكريم بأنه منزل وتنزيل، وأنه سبحانه وتعالى نزله وأنزله، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥] وجاء ذكر المطر المثمر الذي يشبه نزول الوحي بهذه الصيغة خاصة، فرغم أن الماء النازل من السماء يمكن التعبير عنه بألفاظ عدة غير النزول، مثل: سقط وصب وهطل وأمطر وخر وغيرها، إلا أن هذه المواد لم ترد في القرآن في آيات المطر المقابل للوحي، مما يدعو المتأمل إلى البحث في سر اختصاص هذه الصيغ الصرفية بهذه الصورة البيانية التي تظهر في تقابل المطر والوحي.

والذي يظهر أن لهذه المادة أسرارا تظهر من عدة وجوه قد لا تظهر عند غيرها

(١) الزمخشري، "أساس البلاغة"، تحقيق محمد باسل عيون السود، (ط١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ)، ٢: ٢٦٣.

من المواد الصرفية، أو أن غيرها يقصر عما تؤديه من دلالات، ومن هذه الوجوه:

التضعيف في تقابل (أنزل / نزل)، فقد ترد صيغة "أنزل" في مواضع وصيغة "نزل" مضعفة في مواضع أخرى، سواء أكان حديث الآية الكريمة عن الوحي أم نزول المطر، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ﴾ [الشورى: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، إلى غيرها من الآيات الكريمات، وفي مواضع أخرى جاءت الصيغة "نزل" كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، إلى آخر الآيات الكريمات.

"أفعل" في مقابل "فعل"، تأتي صيغة "أفعل" لمعان كثيرة، وربما جاء المهموز كأصله[(١)]، فلا فرق حينئذ بين نزل وأنزل من جهة المعنى، لكن التضعيف هنا له

(١) ينظر: أحمد الحملاوي، "شذا العرف في فن الصرف"، ضبطه وشرحه ووضع فهارسه د.محمد أحمد قاسم، (صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ)، ٤٩.

دلالة، خاصة أن هاتين الصفتين قد جمعتا في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]، فالمعنى يحدده مساق الآية الكريمة حيث نجد أن صيغة "أنزل" تدل على النزول جملة واحدة، أي أن المقصود هو القرآن كاملا، وأما صيغة "نزل" فيدل فيها التضعيف على التكرار، فالقرآن نزل منجما لا جملة واحدة، وهذا الفرق بين الصيغة المضعفة والتي لم تضعف، "نقول ضرب مخففا لمن وقع ذلك عليه مرة واحدة، ويحتمل الزيادة والتقليل أنسب وأقوى، أما إذا قلنا ضرب بتشديد الراء فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه فقوله تعالى: "نزل عليك الكتاب" مشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدعاوي وأنه لم ينزل دفعة واحدة أما لفظ أنزل فلا يعطي ذلك إعطاء نزل وإن كان محتملا"(١)، ففي سورة محمد مثلا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠]، فالذين آمنوا أرادوا بـ"نزلت سورة" الجزء، "فإذا أنزلت سورة" أي سورة كاملة ليست منجمة، هذه السورة محكمة الدلالة على القتال، ليس حكم القتال فيها مجزأ أو متدرجا على نحو ما نجده في آيات تحريم الخمر، بل الحكم هنا جملة واحدة، جاءت عندئذ الصيغة "أنزلت" للدلالة عليها كاملة.

(١) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل"، تحقيق سعيد الفلاح، (ط٣، تونس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠١١م)، ١: ٢٨٦.

وفي أول السورة قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢]، فالقرآن الكريم وقتئذ لم يتكامل نزوله، فكلما نزل جزء آمنوا به، وفيها إشارة إلى إيمانهم ببعضه كما آمنوا به كله، فجاءت الصيغة "نزل"، وفي السورة نفسها يقول الحق جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٩]، فهم كرهوا الوحي جملة، وفيه إشارة إلى أن من كره شيئا من القرآن الكريم كان كمن كره القرآن كله ولا فرق.

وفي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، إشارة إلى تنجيمه كما قال سبحانه في السورة نفسها: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]، فجاءت صيغة "نزل" هنا بوصف "جملة واحدة"، وهذا من الإيجاز، أي: أن هذا القرآن نزل منجما فلماذا لا يكون نزوله جملة واحدة؟، فجاءت صيغة "نزل" متضمنة لمعنى "أنزل"، وهذا التضمين أوجز في العبارة وأدل على المعنى، فلو قالوا: لولا أنزل عليه القرآن: لقيل هو أنزل حقا! ومرادهم أن يكون جملة واحدة، فجاءت صيغة "نزل" لتدل على النزول المنجم أولا، ثم يتبعها بمرادهم من الطلب: "جملة واحدة"، فيأتي الرد: "كذلك لنثبت به فؤادك"، كما قال جل ذكره في السورة نفسها: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٥-٦]، فكونها تملى عليه بكرة وأصيلا فهي دلالة "نزل" ، ثم جاء الرد عليهم: "قل أنزله" أي في كل مجموعه، فالمقصود هو الوحي كله، لا بعضا منه، فسواء قصدوا بعض الآيات أو جنس الوحي ناسب أن تكون الصيغة هنا "أنزل" لتقطع الشك وتحرق الكفر، فكله من عند الله تعالى بكرة وعشيا.

وهكذا تتقابل هاتان الصيغتان، فإذا نظرنا إلى جانب المطر وجدنا الصيغتين نفسيهما تتكرر مع آيات نزول المطر الذي يقابل الوحي، وليست آيات المطر عامة، فإن المطر جاء ذكره أيضا في سياق البعث والنشور وزوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهذه الصور ليست مقصودة هنا، بل المراد هو صورة المطر المقابل للوحي، يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧] ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣]، وجاءت صيغة "نزل" كذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ [غافر: ١٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [الزخرف: ١١]، وطبيعة السماء هي أن يتكرر منها نزول المطر، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، فالمطر دائم الرجوع، وقد سميت السماء بذات الرجع، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١١-١٣]، ورجع السماء "هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعا، أي تعطيه مرة بعد مرة، والخير كله من قبل السماء يجيء، ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به"(١)، ولما أقسم الله تعالى بالسماء ذات

(١) ابن قيم الجوزية، "الضوء المنير على التفسير"، جمعه: علي الحمد الصالحي، تحقيق: صبري بن =

الرجع كان جواب القسم "إنه لقول فصل" أي القرآن، فهناك مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، فالمطر يتكرر نزوله من جهة السماء، وكذلك توزعه في الأرض، فليس ينزل على بقعة واحدة دفعة واحدة، ولا يكون نزوله بين هذه البقاع متساويا، وورود صيغة "نزل" هنا تدل على تكرار المطر مرة بعد مرة طيلة العام، وصيغة "أنزل" تفيد المطر جملة، ولا يكون المقصود توزعه وتفرقه على الأزمنة والأماكن، ففي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، فإن تلك الجنات لم تظهر إلا بعد ديمومة المطر، ونزول المطر مرة واحدة لا يحصل به الإنبات بهذه الصورة، ولربما كان الماء الكثير سببا لموت الزروع وفساد الثمار، فالله تعالى ينزل المطر بقدر معلوم، وهذه التجزئة تفيدها صيغة "نزل"، وهذا التوزيع الرباني للمطر يقابل نزول القرآن منجما بحسب الوقائع والأحداث، فتنزل الآية على أتم حال مناسبة للمقام؛ ليحصل البلاغ وانتفاع الناس به، كما يكون تثبيتا لقلوب المؤمنين، كما تثبت جذور الأشجار بتعاهدها بالسقيا.

وتقابل هاتان الصيغتان يظهر في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٢٤]، وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، فإن سياق آية الروم في ذكر تفصيل المطر، فمن آياته أن يريكم البرق وهو من مبشرات المطر، يريكموه خوفا مما لا يسر وطمعا في الخير والماء الغدق، ولما كان البرق متجددا في حين دون حين، ناسبت صيغة الفعل "وينزل" الدالة على التكرار، ولما كان نزول الماء من علو قد يحصل من علو غير السماء، كنزوله من أعالي الجبال وانحداره من

=

سلامة شاهين، (ط٢، الرياض، دار القبس للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ)، ٧: ٣٢٠

الآكام، عبر بذكر "السماء"، "وينزل من السماء ماء"، "قال محققا للمراد بالإنزال من الموضع الذي لا يمكن لأحد دعواه"(١)، فالمطر من الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، وتكون به حياة الأرض، وكذلك اختصاص الرب جل وعلا بإنزال الوحي الذي تكون به حياة القلب، فلا يمكن لأحد أن يدعي أن الله تعالى أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، كما لا يمكن لأحد أن يدعي قدرته على إنزال المطر أو تصرفه فيه، وهذا يفسر ذكر لفظ السماء في آيات إنزال المطر، فآية الروم تتحدث عن المطر كآية من آيات الله تعالى، فناسب تفصيلها ذكر صيغة "نزل"، أما في آية سورة البقرة فإن سياق الآية يدل على الاعتبار والتأمل في آيات الله تعالى عامة، بدءا بخلق السماوات والأرض، "ولما ذكر نفع البحر بالسفن ذكر من نفعه ما هو أعم من ذلك فقال: "وما أنزل الله" الذي له العظمة التامة "من السماء" أي من جهتها"(٢)، فالمقصود هو التأمل في نزول الماء جملة لا كيفياته، فناسبت الصيغة "أنزل".

ومن أسرار اختصاص التقابل بين المطر والوحي بهذه الصيغة: التعدية بحرف الجر، فالفعل "نزل" يجوز أن يتعدى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] ، ويجوز أن يتعدى بحرف الجر، وأكثر الحروف تعدية للفعل "نزل" الوارد في آيات المطر أو الوحي هما: على/ إلى، علو وإيصال، فالحرف "على" يحمل معنى الاستعلاء، ومعنى الاختصاص، فيقال: نزل عليه أي اختص هو بهذا النازل من فوق، والحرف "إلى" يحمل معنى الغاية مثل "حتى"، فنزل إليه: يحمل مفهوم الإيصالية، بمعنى أنه سيتعداه إلى غيره عن طريقه مع بقائه معه، فهي تحمل

(١) البقاعي، "نظم الدرر"، ٥: ٦١٦

(٢) المرجع السابق، ١: ٢٩٦

معنى "مع" أيضا[١]، فالغاية من إنزال الكتاب هو وصول رسالته للناس، حتى تحصل لهم الهداية وتصلح أمورهم، فإذا كان فعل الإنزال في سياق إعراض وكفر بالكتاب وصد عنه جاء الفعل متعديا بعلى: مثل قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦]، ولم يقولوا أنزل إليه لأنهم لم يقبلوه أصلا، فكأنه لم يصل إليهم، و"على" تفيد الاختصاص بالذكر المنزل كما في قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِى شَكٍّ مِّن ذِكۡرِىۖ﴾ [ص: ٨]، فقوله "عليه الذكر من بيننا" أي اختص به، والحرف "على" يفيد ذلك، وفي سياق ذكر فضل الله تعالى ما جاء في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فلو قال: "أنزلنا إليك" لكان المعنى أن الكتاب موصول لهم، ولم تكن هناك مناسبة من ذكر "يتلى عليهم"، لأن الحرف "إلى" يفيد وصول الغاية، فهو سيتلى عليهم ويبين لهم، لكن المراد هنا: أن الوحي كرامة من الله تعالى اختص بها رسوله صلى الله عليه وسلم، فما كل من أوحى الله تعالى إليه أمره بالإبلاغ!، والله قادر على أن يجعل هذا القرآن خاصا برسوله صلى الله عليه وسلم فلا يتعبد الناس به، أفلا يكفي هؤلاء المعرضون أن القرآن يتلى عليهم؟!، فالقرآن ينزل من عند الله تعالى المختص بالوحي، على رسوله المختار لهذه الرسالة، وغايته هداية الناس وتحقيق الحياة لهم، وإن كان الماء النازل في السماء المقابل لنزول الوحي عام في هيئته لا يكون ثمة معارض ومجادل فيه، فرغم خصوصية نزوله من علو إلا أن المخلوقات تتلقاه بالقبول، ونجد في صورة المطر المقابل للوحي أن الماء النازل من

(١) ينظر: الحسن بن قاسم المرادي، "الجنى الداني في حروف المعاني"، دراسة وتحقيق: أحمد خليف الأعرج، (ط٢، بيروت – لبنان، دار ابن كثير، ٢٠٢١م)، ٢: ٧٤

السماء قد يكون خاصا لهدف ما، فيتعدى الفعل حينئذ بعلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩]، فمما يظهر هنا أن الماء اختص بجزء دون غيره، وهذا ما يفيده التعدي بعلى.

وتظهر هذه المعاني جلية عند مقابلة آيتين من سورة النحل، هما قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، ففي الآية الأولى جاء الفعل متعديا بـ"إلى"، لأن الناس بحاجة إلى البيان وإيضاح هذه الرسالة وإيصالها لهم، ولا يوجد هناك معارض ومعاند وإنما كان الاختلاف على التنزيل بعد بيانه لهم، وإلا فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ رسالة ربه، أما الآية الثانية وفيها يتعدى الفعل بعلى في أسلوب القصر والاستثناء (ما أنزلنا / إلا)، وهو نوع من المؤكدات، جاءت هذه الآية متأخرة عن الآية الأولى في السورة، فناسب أن تكون مؤكدة بعد اختلاف الناس على الوحي، ففي الآية الأولى: "لتبين للناس ما نزل إليهم" فليس عندهم خبر عنه، أما الآية الثانية: "لتبين لهم الذي اختلفوا فيه"، فالبيان هنا ليس بيان تبليغ كما في الآية الأولى، وإنما بيان تفصيل وأحكام لقوم مختلفين، ولوجود الاختلاف والمعارضة ناسب أن يتعدى الفعل بعلى.

ومثل ذلك قول الله تعالى في سورة الزمر، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الزمر: ٤١]، ففي الآية الأولى أمر بالعبادة الخالصة، وتعدى الفعل بإلى التي تفيد الغاية والإيصالية، ليتضمن السياق مشاركة الناس لهذا الأمر، ولو جاء التعدي بعلى لكانت العبادة الخالصة مما

اختص به النبي صلى الله عليه وسلم دون أمته، أما في الآية الثانية ففيها بيان حرية الاختيار من جهة الناس، فقد يهتدوا أو يضلوا، فجاء الفعل متعديا بعلى لبيان خصوصية الرسالة والوحي فكأنه لم يصلهم رغم قيام الحجة إليهم، سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم، فلم تتحقق الإيصالية رغم وصول الرسالة وأداء الرسول أمانته، فتعدى الفعل بعلى، وجاء ذكر لفظ "الناس" بخلاف الآية الأولى، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بتبليغ هذه الرسالة وإن اختص بالوحي من دونهم، فذكر لفظ الناس حتى لا يحصل اللبس بالضمير الذي قد يعود لجماعة دون أخرى، فلفظ الناس اسم لجنس الناس كلهم، ثم قال: "فمن اهتدى فلنفسه.." فإذا وصل إليهم البيان فليس على النبي صلى الله عليه وسلم هداهم حينئذ، فقال: "عليك" أي: "خاصة لا مع غيرك من أهل هذا الزمان لأنك عندنا الخالص لنا دون أهل القريتين ودون أهل الأرض كلهم"(١).

ومن أسرار اختصاص التقابل بين المطر والوحي بهذه الصيغة، معاني الاشتقاق فيها، ومعنى الاشتقاق كما بينه ابن جني في الخصائص: "كأن تأخذ أصلا من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه"(٢)، ومن معاني الاشتقاق في هذه الصيغة ما جاء في صيغة "نزل" بفتح النون وسكون الزاي، فالنزل هو ما يهيأ للنزيل وهو الضيف، "وكنا في نزالة فلان: في ضيافته، وهو حسن النزل والنزالة، وأعد لضيفه النزل والنزل، وطعام ذو نزل ونزل وهو ريعه"(٣)، ويقال "سحاب

(١) البقاعي، "نظم الدرر"، ج٦، ٤٥٢

(٢) أبو الفتح عثمان بن جني، "الخصائص"، تحقيق محمد علي النجار، (ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ٢/ ١٣٦.

(٣) الزمخشري، "أساس البلاغة"، ٢/ ٢٦٤.

نزل وذو نزل: كثير المطر، قال النمر:

إذا يجف ثراها بلها مطر من واكف نزل بالماء سجام"[1]

هذا أصله، ثم اتسع فيه فأطلق على الرزق والغذاء وإن لم يكن لضيف[2]، والماء النازل من السماء سماه الله تعالى رزقا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، أي مطر وغيره من الأسباب المهيئة لإخراج الرزق[3]، هذا النزل من السماء . وهو الرزق . تلقاه الناس بالاختلاف عليه، فكانت هناك عقائد وديانات، فأخذوه وفصلوه ونازعوا في الألوهية، ولم يسلموا للرب المنزل تبارك وتعالى، قال جل ذكره: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ [يونس: ٥٩]، فالرزق والنزالة وما يهيأ للضيف والمكان الذي ينزل فيه، هذه المعاني مجتمعة تدل على أن المطر النازل من السماء يهيئ لأمر ما، يجعل الحياة صالحة على الأرض، وهذا النزل يهيئ للناس القرار والانتفاع بما تحصل به حياتهم، وكذلك الوحي النازل من السماء، فهو يهيئ لمستقر أبدي، فغاية المطر إحياء الأرض، وغاية الوحي

(١) المرجع السابق، ٢/ ٢٦٤.

(٢) ينظر: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون"، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، (ط٣، دمشق، دار القلم، ٢٠١١م)، ٣/٥٤٦. وأيضا: محمد بن يزيد المبرد، "الكامل"، تحقيق د. محمد أحمد الدالي، (ط٤، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٤م)، ١/ ٢٢٤. وأيضا: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، "جمهرة اللغة"، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين، (ط١، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م)، ٢/ ١٦٦.

(٣) ينظر: "نظم الدرر"، ٧/ ٩١.

توحيد الله تعالى والنجاة من النار، ومستقر المطر هو الأرض، أما مستقر القرآن فهو يوم العرض، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

والمتأمل يجد أن لفظ "نزل" لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق المصير الأخروي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقد ورد لفظ "نزل" في القرآن الكريم في ثمانية مواضع(١)، فبدأ بصيغة "أنزل" وانتهى بصيغة "نزل"، فهذا المنزل يهيئ لنزل تجمعها معاني الاشتقاق، فهناك تناسب بين "أنزل" و"نزل" ما كانت لتحصل لولا هذا الاختصاص.

ومن أسرار اختصاص التقابل بين المطر والوحي بهذه الصيغة أن الله تعالى وصف كتابه العزيز بأنه "تنزيل"، كما في قوله جل ذكره: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]،وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥] ، وقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، فلكثرة ورود صيغة "أنزل" مع الوحي، انتزعت منه هذه الصفة، فإذا قيل "التنزيل" لم يكن إلا هذا الكتاب العزيز، وفي المقابل فإن المطر الذي يرسم الصورة البيانية للوحي لم يأت إلا بهذه الصيغة في حين

(١) ينظر: "المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم بالرسم العثماني"، إعداد: عبد الله إبراهيم جلغوم، (ط١، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ٢٠١٥م)، ٢/ ١٣٢٠.

أنه لم يسم تنزيلا!، ذلك أن الأصل هو الوحي، والمطر فرع وصورة، ومثال وليس غاية في نفسه كما الوحي، ويجوز أن تنتزع الصفات من الأفعال إذا تكررت، يقول ابن جني: "ومنه قولهم في الخبر: "إنما سميت هانئا لتهنأ" وعليه جاء نابغة لأنه نبغ فسمي بذلك، فهذا لعمري صفة غلبت فبقي عليها بعد التسمية بها بعض ما كانت تفيده من معنى الفعل من قبل"(١)، فتكرار النزول وغلبة هذه الصيغة على الوحي ناسب استخلاص هذه الصفة لتكون خصيصة للوحي فهو التنزيل المبارك.

فاختصاص التقابل بين المطر والوحي بهذه الصيغة يرجع إلى معاني هذه الصيغة من جهة الوزن الصرفي والاشتقاق واستخلاص الصفات.

٢. تقابلات الأسماء والأوصاف

جاء وصف القرآن الكريم بالبركة والنور والشفاء والرحمة والبشرى، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]،وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١-٢]، وهذه المعاني كذلك مجتمعة في وصف المطر المقابل للوحي، فوصف الله عز وجل المطر بالبركة في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، فالقرآن الكريم كتاب مبارك، تستغرق بركته الأعماق من كل شيء، فهو بركة في النفس والوقت، وبركة لما يحصل به من تكثير الحسنات ومضاعفة الأجور، وبركة الحفظ من الشرور، والماء المبارك ينبت به الزرع، وتحقق مادة الحياة، وتعيش

(١) ابن جني، الخصائص، ٣/ ٢٧٤.

الكائنات، فالماء المبارك هو ذو النفع، والأثر الباني، وما كل ماء مبارك!، فقد تمطر السماء ولا تنبت الأرض.

وجاء وصف المطر بالنور كلازم له فقال جل ذكره: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، ونور القرآن هدايته، وإيضاح طريقه، يأخذ بلباب الفكر، ويشعل فتيل البصيرة، ووصف المطر بالطهارة كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [الأنفال: ١١]، فالماء الباقي على أصل خلقته طهور، والماء الطهور النازل من السماء تحصل به الطهارة من الأدناس والأرجاس، والقرآن عظيم لا يمسه إلا المطهرون، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٩-٨٠]، ويحصل به تكفير الخطايا، ومحو الذنوب، والطهارة من الشرك، وتحصل بكل منهما رحمة العباد والبلاد في معاشهم ومعادهم، ووصف كذلك بالرحمة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾ [الشورى: ٢٨]، وتحصل به البشرى كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨-٤٩]، وهي صفات متقابلة في المطر والوحي، فالقرآن الكريم رحمة وبشرى، يفرح به المؤمنون.

ومن التقابلات بين المطر والوحي ما جاء في وصف السحاب بأنه سحاب ثقال، فلفظ "الثقال" يقابل وصف الكتاب العزيز بأنه قول ثقيل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، ثقيل لما فيه من التكاليف الشاقة من جهة حملها وتحميلها للمدعوين، ومن جهة رزانة لفظه لامتلائه بالمعاني، مع جلالة معناه وتصاعده في خفاء فلا يفهمه المتأمل إلا بمزيد فكر وتصفية سر وتجريد نظر، مع أنه ثقيل في الميزان وعند تلقيه، وله وزن وخطر وقدر عظيم، وهو مع ثقله خفيف على

اللسان سهل التلاوة ينساب رقة وعذوبة(١).

وكما وصف المطر بأنه رزق، وصف القرآن الكريم بما يدل على ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، فالآية الكريمة تنكر عليهم تخيرهم عليه، وهو ليس إليهم، بل هو سبحانه الذي يقسم معيشتهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم، ويقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار(٢)، والقرآن خير الرزق كله، فمن أوتي القرآن فقد أوتي خيرا كثيرا، و"رحمة ربك خير مما يجمعون"، فجعل القرآن في مقابل الرزق على وجه التفضيل.

فالمتأمل في المطر المثمر من كل الوجوه يجده شبيه الوحي، مما يجعل الصورة البيانية محكمة، توقظ في النفس مكامن الاعتبار.

(١) ينظر: البقاعي، "نظم الدرر"، ٨/ ٢٠٦.

(٢) ينظر: ابن القيم، "الضوء المنير على التفسير"، ٦/ ١٢٤.

المبحث الثاني: تقابلات السياق

بعد تقابل المفردات يأتي التقابل على مستوى بنية النص، فهي تقابلات على مستوى الجمل، في السياق الداخلي للآية الكريمة، فالكلمة المفردة سياق يدخل في سياق، بل إن النصوص قد تنشأ من مواجهة الكلمات، ويعتبر السياق قرينة تأويلية، ومرجحا لمعنى من المعاني، خاصة إذا علمت للسياق المؤطر مقاصد وغايات، فإن الجزء يندرج تحت الكل، ويجري مجراه، وسواء تعلق الأمر بسياق الأحوال والمناسبات، أو سياق نص داخل خطاب أوسع، ومقاصد كلية معلومة، أو داخل السياق البنائي النصي "المساق"، فإن هذه الأطر التأويلية المنتظمة تعالقيا وتراتبيا مما يرجح المعنى ويقويه(١)، والمثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للوحي: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا"(٢)، يكون صورة ذهنية لدى المتلقي، هذه الصورة ستشكل أطرا تأويلية للآيات التي تتناول المطر والوحي، مما يؤثر في عملية الفهم، وليست الصورة في الآيات القرآنية بنفس البنية النصية الواردة في الحديث، فهي تأتي وفق استراتيجية تقابلية على عدة مستويات، فتأتي الصورة الذهنية في مقابل هذه الاستراتيجيات، مما يساند تأويل الصورة البيانية القرآنية للمطر والوحي، سواء تقابلات تعالقية أو تناسبية.

١. تباشير القدوم وإرهاصات البدء

من المبشرات بنزول المطر هبوب الرياح، يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقوله جل ذكره: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن

(١) ينظر: د. محمد بازي، "نظرية التأويل التقابلي"، ١١٥.

(٢) سبق تخريجه: "صحيح البخاري"، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم ٧٩، ١/ ٤٢.

يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، وكذلك الرسل تبشر بما أنزل الله من الوحي، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ [الأنعام: ٤٨]، فالرياح تقابل الرسل، والله تعالى يرسل الرياح، ويرسل الرسل، فهما مشتركان في الفعل أرسل، وقد سميت الرياح مرسلات، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١]، فلفظ المرسلات يتضمن معنيين: الرياح والرسل، فكلاهما مرسل، يقول الطبري: "إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفا، وقد ترسل عرفا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عم جل ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كان صفته كذلك، فداخل في قسمه ذلك ملكا أو ريحا أو رسولا من بني آدم مرسلا"(١).

وكما أن الرياح تبشر بالمطر وتأتي بالخير، فكذلك الرسل يبشرون بالوحي، ويأتي بهم الخير، ولم يأت فعل إرسال الرياح إلا اقترن بوجه من الوجوه بإرسال الرسل، وقد ورد ذلك في سبعة مواضع نذكر منها ما ورد في سورة الفرقان، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡيِيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَ كَثِيرٗا ٤٩ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٢]، فالرياح المرسلة بشرت بالمطر فكانت مقدمة له، فنسائم المطر وتباشير الرحمة تهب مع الرياح،

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر – د عبد السند حسن يمامة، (ط١، القاهرة – مصر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ٢٠٠١م)، ٢٣/ ٥٨٣.

والمبشرات: "هي التي تأتي بالسحاب والغيث"(١)، فينزل الماء الطهور الذي تحيا به البلدة الميتة، والفرق بين البلدة الميتة وبين "الأرض بعد موتها" أن البلد والبلدة جزء من كل، والأرض كاملة لم يخلقها الله تعالى ميتة، لذلك توصف بـ"بعد موتها" وفيه إشارة للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، فإن الإنسان الذي يقابل الأرض في هذه الصورة البيانية ولد على الفطرة ثم تغير، والأرض خلقت حية ثم ماتت، فبعثها الله تعالى بالمطر، أما لفظ "البلد الميت" و"البلدة الميتة" فإن الحكم على الجزء لا يعني العموم، فالحكم على البلد بأنه ميت لا ينفي حياة الأرض الأولى، كما يقال هذه شجرة ميتة لا يعني أن جميع شجر الأرض ميت لأن هذا لا يصح، ولا يشترط في الحكم على الجزء بيان سابقته في الحياة لأنه طرف لا أصل، فلا يلزم أن يقال: هذه شجرة حية ثم ماتت إذا أردنا الوصف بالموت، ويستساغ أن يولد الجزء ميتا، وقد تكرر هذا الوصف كذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [فاطر: ٩]، ولم يأت وصف الأرض بأنها ميتة ولو على سبيل المجاز، لأن الأصل في الخلق التوحيد والشرك حادث، والتعبير عن التوحيد والشرك يقابل الموت والحياة، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، يقول الطبري: "فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة "الميت" الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة"(٢)، فالتوحيد حياة بينما الشرك موت.

فلما ارتوت البلدة حصلت السقيا بهذا الماء الطهور للمخلوقات من الأنعام

(١) أبو منصور الثعالبي، "فقه اللغة وأسرار العربية"، شرحه وقدم له ووضع فهارسه: د. ياسين الأيوبي، (ط٣، صيدا – بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠١م)، ٣٠٢.

(٢) الطبري، "جامع البيان عن تأويل آي القرآن": ٩/ ٥٣٢.

والناس، ورغم هذه النعم العظيمة وتصريفها بينهم، قوبلت بالكفر لا الشكر، والجحود لا السجود، وفي قوله: "صرفناه" سر خفي، فإن لفظ التصريف ورد أيضا مع الرياح في سياق النشر بين الناس والأماكن، يقول الله تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله جل ذكره: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، في موضعين من كتاب الله تعالى، هذه الآيات مدعاة للشكر، وقد أثار القرآن أسئلة التأمل حولها بعد حصول هذه السقيا، يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفعل التصريف ورد في القرآن في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: ٤١]،وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف: ٥٤]، فالتصريف للآيات عامة، وللقرآن، يجمعها التذكر والتفكر والشكر والعبادة، وهذا التصريف قوبل بالكفر، وليس يعجز الله تعالى أن يبعث في كل قرية رسولا، ولكنه أنزل ما يكفي الناس لصلاح أمورهم، ومناسبة ذلك أن المطر ينزل على أرض ثم يصرف الله ماءه في أرض أخرى، وهو مثال لانتقال الوحي والرسالة، فهي تنزل على الرسول أولا ثم تبلغ الناس، وتنزل في قومه ، ثم تعم الخلق، وهؤلاء المعاندون طلبوا أن يأتيهم كتاب خاص بهم، أو يبعث الله في كل قرية رسول، وهذا لم يحصل في المطر ولم يعترضوا عليه، فناسب أن يكون مثالا لهم لعلهم يتذكرون، مع قدرة الله الكاملة على إرسال الرسل في كل قرية لو شاء ذلك، فله الحكم البالغة والمشيئة النافذة والقدرة المطلقة.

وجاء التعبير عن بعث الرسل في كل قرية بعد ذكر تصريف الماء، فالمطر ينزل في

بقعة ما، ويساق ماؤه إلى ما يشاء الله تعالى، ولو شاء ربك لجعل الماء ينزل على كل بقعة، ولو شاء ربك لبعث في كل قرية نذير، ولو شاء ربك لآتى كل نفس هداها، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، والحياة تحصل بكل منها . أي المطر والوحي . حتى بعد التصريف فالأرض الصالحة للإنبات، والنفس القابلة لما أنزل الله ستثمر أنزل عليها خاصة أم لا، وفي الرياح دلالة الانتشار، مما يناسبه ذكر النذر المنتشرة في القرى.

وهنا اقترنت آيات مبشرات المطر بآيات الوحي والرسالة، فالآيات لم تتحدث عن الوحي بل عن الرسل التي هي تقابل الرياح المبشرة، كما في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٦-٤٧]، فإرسال الرياح يقابل إرسال الرسل، وكانت "الرياح مبشرات ومنذرات، وكانت موصوفة بالخير كما في صحيح البخاري: (كان أجود بالخير من الريح المرسلة)[١] وكانت في كثرة منافعها وعمومها إن كانت نافعة، ومضارها إن كانت ضارة، أشبه شيء بالرسل في إنعاش قوم ، وإهلاك آخرين، وما ينشأ عنها كما ينشأ عنهم"[٢].

ويقول الحق جل ذكره في سورة الأعراف: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ [الأعراف: ٥٧] ، وبعد أن فصل في تصريف المطر واستقبال الأرض له وانقسامها عليه، بلد طيب مثمر كمن قبل الوحي واهتدى بالرسالة، وبلد

(١) البخاري، كتاب الصوم، باب: أجود ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكون في رمضان، ٢/ ٦٧٢.

(٢) البقاعي، "نظم الدرر"، ٥/ ٦٣٦.

خبيث لا يخرج إلا نكدا، كمن رد هدى الله تعالى، ولم ينتفع به، فلا يكاد يفلح، بعد ذلك جاء تفصيل دعوة الأنبياء بدءا من نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ومثله قوله جل ذكره في سورة الجاثية: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٥-٦]، وهكذا تقترن آيات الرياح بآيات الرسل والرسالة.

٢. تقابلات المحل

محل نزول القرآن الكريم هو القلب، والقلب تحصل باستقامته حياة الروح واستقامة الجوارح، "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"(١)، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقوله جل ذكره: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، والقلب إذا كان صالحا أثر فيه القرآن كالبلد الطيب، وإن كان فاسدا لم يكن محلا صالحا لطهارة الوحي، فلا يتأثر به ولا يكاد يثمر، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، شبه القلوب بالأرض إذ هي محل الأعمال كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يزكو عليه ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر ولا تخرج نباتها به إلا قليلا لا ينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي، وزكا عليه

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٨.

وعقله وتدبره بان أثره عليه، فشبه بالبلد الطيب الذي يربو ويخصب ويحسن أثر المطر، عليه فينبت من كل زوج كريم والمعرض عن الوحي عكسه(١).

فالأرض تقابل القلب، وما فيها من طرائق وشعاب ونبات ونحوه يقابل ما في القلب من همة وإرادة وأوعية علم وعقيدة وأعمال، والمتأمل في سير الماء في الأرض يجده موصوفا في القرآن بأنه "يسلك"، وهذا الفعل جاء كذلك فيما يخص دخول الآيات للقلب، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، سلكه أي: "أودعه فيها ينبوعا يستخرج بسهولة ويسر"(٢)، فسلكه من خلال التراب، من بين الأجزاء الصغيرة، وأصل السلك: الخيط الذي يغزل والجمع سلوك، والمسلك: كل طريق سلكت فيه، ورجل مسلك نحيف الجسم(٣)، وسلك الخيط في الإبرة، وسلك السنان في المطعون(٤)، ففي اللفظ معنى الخفاء والدقة، فالمسلك ليس بالطريق العريض، والماء يسلك فيكون ينابيع في الأرض، وقد يسلك منها فيمر مرورا على أرض عقيم، وكذلك قلب الكافر، مطبوع عليه فلا ينتفع بالآيات، فتسلك في قلبه وتخرج كما دخلت، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨-٢٠١]، وقوله

(١) ابن القيم، "الضوء المنير"، ٣/ ٢٣٧.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، قدم له: عبد الله بن عقيل ومحمد العثيمين، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، (ط١، بيروت – لبنان، دار ابن حزم، ٢٠٠٣م)، ٦٨٨.

(٣) "جمهرة اللغة"، ٢/ ٢٠٢.

(٤) الزمخشري، "أساس البلاغة"، ١/ ٤٧٠.

تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١١-١٣]، تلك القلوب الضيقة المجرمة لا تنشرح بالقرآن، فهو يسلك فيها كما يسلك الخيط في غاية الضيق، فكأنما مر القرآن مرورا، فلا ينتفع بالآيات، ويدل الفعل المضارع "نسلكه" على التجدد والاستمرار، فهذا شأن القرآن مع تلك القلوب، وأما قلوب المؤمنين فهي كالأرض الواسعة الطيبة، وقد وصفها القرآن بأنها تخبت، في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]، فقلوبهم كالأرض الهينة اللينة الواسعة المطمئنة، وهذه صفات الأرض التي تقبل الماء، والخبت فيه انخفاض فاللفظ يحمل دلالة التواضع، فهم لا يستكبرون، ومن خصائص الماء النزول إلى الخبت، فقلوبهم أخبتت فطابت وزكت بالوحي، وأما القلوب المستكبرة فهي على نقيض الخبت، تنبو عن الماء فيصرف عنها، كما قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فإذا كان الماء لا يصيبها فلا غرو أن تيبس فتقسو، وكذلك القلب إذا ما ارتوى بالوحي فهو أشد قسوة من الحجارة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧]، والخشوع في أصل اللغة الانخفاض والذل والسكون وهو مناسب لوصف الإخبات السابق، فمن صفات الأرض القابلة للماء الخشوع، فهي منخفضة وهذا أدعى للقبول، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ

خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ﴾ [فصلت: ٣٩]، أي ساكنة، فإذا لم يخشع القلب زال عنه أثر الوحي شيئا فشيئا، فهؤلاء الذين أوتوا الكتاب من قبل طال عليهم أمد الغفلة فقست قلوبهم، وحتى لا يقنط قلب المؤمن بهذا العتاب، قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: ١٧]، والذي أحيى الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله(١)، فقابل بين القلب الميت القاسي بعد أن لان بالوحي وبين الأرض الخاشعة الميتة تعود حية بعد المطر، والأرض التي هي محل المطر تقابل القلب الذي هو محل الوحي.

٣. تقابلات الأثر

بعد تلك الآيات الباهرة والحكم البالغة في تقابلات المطر والوحي في الكتاب العزيز، يأتي ذكر بقاء الأثر بعد كل منهما، فماذا بعدئذ؟، يقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، فإذا نزل المطر سالت الأودية وامتلأت، فواد كبير وواد صغير كل يسير بقدره، هذه الأودية كأوعية القلب، منها الكبير الذي يسع علما كثيرا، ومنها الصغير الذي يحتمل من العلم بقدره، وما كل القلوب تأخذ نصيبا واحدا من الوحي، فهي كالأودية.

فإذا سالت الأودية بالماء حمل هذا الماء ما أمامه من غثاء فغسل الوادي واحتمل السيل الزبد، فالغثاء يعلو صفحة الماء ولا يغوص، "وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما

(١) السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ٨٠٤.

فيها من الشهوات والشبهات؛ ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه، فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء"[1]،وهو بهذه الصورة يشبه الوحي الذي يغسل القلب من الشبهات والشهوات، وهذا الزبد لا يثبت، فلا يلبث أن يزول على جانبي السيل ينفيه الماء بجريانه وتجدده، فيجافيه الزبد ويبقى الماء صافيا نقيا بعدما اختلط به، "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض"، "وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء"[2].

هذا الاستقرار في القلب يبعث على العمل الصالح ولزوم الاستقامة، ومن خصائص الحق الثبات، ومن خصائص الباطل الحركة والاضطراب، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]، فالاستقرار والثبات خصيصة الوحي، يعني بالشجرة الطيبة المؤمن ينطلق من أصل ثابت، وأما الكافر فليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء[3].

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ)، ١/ ١١٨.

(٢) ابن القيم، "الضوء المنير"، ٤/ ١٢٢.

(٣) ينظر: ابن القيم، "الضوء المنير"، ٤/ ١٦٥.

ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله تعالى عبده، فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا[١]، فالعبد لا يستغني عما أوحى الله تعالى من الهدى طرفة عين، فإن الرياح عاتية تقتلع الجذور اللينة، فلابد أن يعمل بما أنزل الله تعالى وإلا ذهب النور من قلبه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، ونزول القرآن الكريم تثبيت من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، فالتثبت ينزل من الله تعالى، وليس أمره إلى الذوات، فلا يحصل التثبيت إلا بما أنزل الله تعالى، وأثر المطر حين يستقر ويثبت في الأرض كأثر القرآن حين يستقر في القلب، وهذا الاستقرار والثبات إنما هو بفضل من الله تعالى وحده، فلو شاء لذهب بالماء بعد أن سالت الأودية، ولو شاء لذهب بالوحي بعدما أنزل واستقر في الصدور، فلولا يشكر الناس هذه النعم؟!، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، فالله عز وجل متفرد بالربوبية، فلا يقدر على إنزال المطر إلا الله تعالى، وهو قادر على الذهاب به كأن لم يكن، والربوبية التي هي أفعال الرب تبارك وتعالى تقابل الألوهية التي هي حق المعبود سبحانه، فالكفار كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، ويقع منهم الشرك في الألوهية، فتقابل المطر والوحي يدل على تقابل الربوبية والألوهية، فالله تعالى قادر على أن يذهب بالوحي بعد نزوله على القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾

(١) المرجع السابق، ١٦٦.

[الإسراء: ٨٦]، فالوحي ليس كالأشعار والخطب التي تحفظ بعد تلقيها، وتبقى ما بقيت الذاكرة والألسن التي تتناقلها، وهنا إعجاز مبهر، وتحدي من نوع آخر، فالقدرة على حفظ القرآن لا تكمن في ملكات النفس البشرية، فهو ليس من سائر المحفوظات التي يسع الإنسان بذكائه أن يحتفظ بها، فلو شاء الله تعالى لذهب بالذي أوحاه من القرآن كما يذهب بالماء من الأرض، ثم لا يستطيع أحد أن يسترده، أو أن يجد وكيلا غير الله يأتيه به، وفي هذا تنبيه للأذهان وعبرة، فالربوبية تقابل الألوهية، والإيمان بإحداها يقتضي الإيمان بالأخرى، وكأن التقابل بين المطر والوحي يرسخ هذه العقيدة في النفس.

ومن تقابلات الأثر ما يحدثه المطر من تنوع في الثمار، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وما يظهر من أثر القرآن في تلك القلوب التي قبلته كالأرض الطيبة، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالثمار تنقسم بين الحلو والحامض والمالح والمر وتختلف طعومها وأشكالها، والماء واحد، وكذلك أهل القرآن ينقسمون بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات، بقدر أخذهم من هذا الكتاب العزيز، وشبه هذا الأثر بالثمار فيه مناسبة، فالعمل الصالح هو ثمرة الإيمان، ونتاج الأرض هو ثمرة المطر، وقد جاء هذا التشبيه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها حلو، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحان ريحها طيب

وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح للها وطعمها مر"[١]، فقابل في هذا المثل بين الأخذ بالقرآن وبين الثمار باختلاف طعومها، فالوحي واحد والماء واحد وما يظهر من اختلاف نتاجهما مختلف آية من آيات الله تعالى.

وهكذا تكتمل الصورة البيانية للمطر المثمر في مقابل الوحي المبارك، بدءا بمقدماته من الرياح والرسل ثم قبول المحل له واستقراره فيه، ثم ما يحدثه من الأثر البالغ، واختلاف الألوان والأشكال تبعا لذلك، حتى يظهر نور هذا الكتاب على جبين أهله.

(١). أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، ٥/ ٧٠.

المبحث الثالث: التقابل العكسي

التقابل العكسي هو مفهوم عكس الصورة البيانية السابقة من تقابلات المطر والوحي، والرياح والرسل، والإيمان والثمار، والقلوب والأرض، فالمطر والقرآن كما سبق أنزلا رحمة، وهداية ونجاة، ولم ينزل عذابا، ولا عنتا ومشقة.

وتقابلات الحضور والغياب في السياق تقتضي وجود صورة بيانية عكسية، فإذا كان اللفظ في السياق يحمل معنى غياب ضده، فإن هذا الغياب يبقى حاضرا في الذهن في صورة منفية، واللفظ العربي يحمل المعنى ويشير إلى ضده، فإذا أثبت اللفظ صفة ما فهو ضمنا ولزوما ينفي ضدها، فكلمة "قام" على سبيل المثال تنفي "قعد" أو "جلس" وهكذا، تتقابل ثنائيات الحضور والغياب، أي: "عناصر حاضرة مقابل أخرى غائبة وعلاقتها بالحاضرة دليل غيابها"[(١)]، وفي الصورة البيانية للمطر والوحي استغراق دقيق لكل المعاني، فإن هذه الصورة البيانية بعد اكتمالها تعود إلى المعنى العكسي فيضاف إلى الصورة نفسها، فيمكن للمطر أن يكون عذابا، ويكون هذا القرآن حسرة، وفي هذا المبحث يتقابل سياق الرحمة بسياق العذاب، فإن الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين، ومن أطاع الله تعالى دخل الجنة، ومن كفر فله النار، وهذه المعاني لا تنفك عن تلك الصورة البيانية المتكاملة، فإن المطر المقابل للوحي يحمل الدلالة نفسها، والمتأمل يجد أن المطر النازل للعذاب لم يأت معه صيغة "أنزل" أبدا، لأن الصيغة كما مر تحمل دلالات الرحمة والبشرى، وإنما تأتي صيغ أخرى مثل "أمطر"، يقول الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]،

(١) د. محمد بازي، "نظرية التأويل التقابلي"، ٤٧٣.

وقوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِۚ﴾ [الفرقان: ٤٠]، فهذا المطر لم يكن لإحياء الأرض بعد الموت، وإنما هو ماء نزل بعد الماء الأول، إلحاقا به لمن كذب وأبى، فكأن مطر الرحمة إذ كذبوا وكفروا برحمة الله المنزلة انقلب عليهم عذابا، فجاءهم البؤس من حيث ترجى السعادة، فانقلبت الآية الكونية عندما تنكبت الطباع الطريق، وأبت القلوب ماء الحياة، فمطر العذاب يقابل جزاء التكذيب بالوحي تقابلا تراتبيا، أي أنه لا ينقلب عذابا إلا جزاء لمن كذب بالحق والنور، فهو مترتب على ذلك، وهذه العناصر حاضرة في السياق بينها تراتبية وإجراء هذا التقابل يسمح بفهم حسن لها، عن طريق إدراك العلاقات بينها(١)، ولم تأت صورة مطر العذاب مقابلة لصورة الوحي كما في المطر المثمر، لأن المطر لا ينقلب عذابا بلا سبب، وكذلك الوحي لا يكون حسرة وندامة لذاته، فلما تمت الصورة البيانية للمطر والوحي، استغرق المعنى ما تبقى من أثر، فالثمرة لمن آمن، فماذا عن أعدائه؟ أولئك الذي جاءهم الوحي فرفضوه، رأوا سحابة في السماء تستقبل أوديتهم، ففسروا هذه الظاهرة منقطعة عن الوحي الذي كذبوا به، فظنوه عارض ممطرهم، لكنهم لم يقبلوا الوحي فأراهم الله تعالى كيف تنقلب الآية لما قلبوا مراد الوحي، إذ هو لنجاتهم وسعادتهم، جاءهم المطر لهلاكهم وتعاستهم، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فالذي يكذب بالوحي وهو من خصائص الألوهية، فهو يكذب بقدرة الله تعالى في المطر وهو من خصائص الربوبية وإن ادعى الإيمان، فالمقابلة بين المطر والوحي هنا أسلوب حجاجي، حيث الاستدلال الذي هو شكل

(١) ينظر: د. محمد بازي، "نظرية التأويل التقابلي"، ٤٧١.

من أشكال الحجاج، فإذا أقر المتلقي بما في المطر، كان ولابد أن يقر بما في الوحي، فبنية التشبيه تقتضي التقابل بين المشبه والمشبه به واشتراكهما في الصفات، فلا يمكن أن يقع التشبيه في متضاد أو متنافر، والتقابل بين الوحي والمطر يحمل دلالة التشابه والتوافق والتراتب، ففي سياق قصص الأمم السابقة حجة على من رد ما أوحى الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، فقابل القرآن الكريم بين نزول المطر ونزول الوحي، وبعد قيام الحجة بين لهم ما يترتب على الإعراض من خلال ما حصل لهذه الأمم، فهؤلاء رأوا العارض وهو السحابة التي يرجى منها المطر، فظنوه مطرا وهو عذاب، "ريح فيها عذاب أليم" ولم يقل رياحا كما في آيات المطر المثمر، لأن الرياح في القرآن الكريم ترد في سياق الرحمة والخير، ولم يرد لفظ الريح إلا في العذاب والشر[1]، فهذه الآية وهي انقلاب طبيعة المطر إلى عذاب تنبيه لما يقابل المطر من الوحي، فقد يكون عذابا وندامة وسائقا إلى النار، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين"[2]، ووصفه الله تعالى بأنه لا يزيد الظالمين إلا خسارا، ذلك ليس أن القرآن في ذاته عذاب وخسار بل لأنهم لم يستجيبوا له، فإذا ثبت أنه كالماء الذي يحيي الأرض، فما بال من يعرض؟ وماذا يتوقع أن يكون مصير معرض عن الماء إلا أن يموت عطشا؟، فالمعرض عن القرآن ليس كمعرض عن شيء يمكن الإعراض عنه، فالإعراض عن القرآن هلاك، فها هو قد نزل، من أخذ به نجا، ومن أعرض عنه هلك، ولا سبيل بين ذلك، فالمطر المهلك الذي يقابل هذا الإعراض آية محسوسة لمن تسول له نفسه أن ينأى عن هذا الكتاب، فهو أتاهم بغاية النور والنجاة والسعادة، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

(١) ينظر: الثعالبي، "فقه اللغة"، ٤٢٣.

(٢) صحيح مسلم برقم ٨١٧.

وممن أهلك بالماء أيضا قوم نوح، حيث فتحت السماء بماء منهمر، وفجرت الأرض بالعيون، وعلاهم الطوفان، فما عصمهم من الماء شيء إلا رحمة الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام، ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢]، فلم يرد الفعل "أنزل" هنا، لأن الماء النازل من السماء كان عذابا لهم، فهم طغوا فطغى الماء عليهم، ونجاة نوح عليه السلام في السفينة التي تجري بهم في موج كالجبال، لم تكن نجاة إلا لمن ركب معه، ليس لأن السفينة خارقة، فقد جاء وصفها بأنها من ألواح ودسر، بل لأنها بأمر الله تعالى، وفيه إشارة إلى أن النجاة مع اتباع ما أنزل الله تعالى، ففي الجزاءات تنقلب الأمور المعنوية إلى محسوسة، فالوحي معنوي، وتحصل النجاة به، والسفينة محسوسة وحصلت بها النجاة من الطوفان، السفينة تقابل الوحي، فكأن الوحي هو سفينة النجاة، ولهذا نظائر في نصوص الكتاب والسنة، فإن الصراط المستقيم وهو دين الله تعالى المأمورين باتباعه في الدنيا، يكون يوم القيامة صراطا منصوبا على جهنم لا يجوزه إلا من جاز الصراط المعنوي في الدنيا، وكذلك ما ورد عن تجسيد الأعمال في الآخرة وهي في الدنيا غير محسوسة، كالصدقة التي تظلل صاحبها يوم القيامة، والقرآن الذي يأتي يجادل عن صاحبه، إلى غير ذلك، ورغم أن المطر نزل عذابا هنا، إلا أن العذاب لا يخلو من رحمة، وهذا من مقتضيات الكمال في أسماء الله تعالى وصفاته، فالعقوبات وإن كانت شديدة فيها رحمة، ظاهرها هلاك أعداء الله تعالى، وباطنها رحمة للمؤمنين، ولما كان قوم نوح عليه السلام هم أول من اتخذ الأصنام وعبد الأوثان، وأفسدوا الأرض بلوثة شركهم، كان في هلاكهم بالطوفان مناسبة غسل الأرض من هذه الأدران، وكذلك الكافر إذا أسلم اغتسل بالماء.

وممن أهلك بالماء فرعون وقومه، الذي علا في الأرض وادعى الربوبية، وأنكر الوحي، لكن الماء لم ينزل عليه من السماء كما حصل في قوم نوح عليه السلام، وإنما

فرق البحر فجاء هو بقومه فأطبق البحر عليهم، فهلكوا غرقا، وفي هذا مناسبة، فإنه لما علا في الأرض بغير الحق وجعل أهلها شيعا، أصبح البحر كمثل الجبال العالية، ومن طبيعة الجبل الصلابة والقسوة والشموخ، فأخذ الماء هذه الخصائص فارتفع فكان كل فرق كالطود العظيم، فلما اطمأن إليه هو وجنوده وتوسطوا يابسة البحر، رجع الماء إلى خاصيته فأهلكه غرقا، ففرعون علا وشمخ وتكبر، فعلا الماء وتجبر ليريه عاقبة منازعة الربوبية، فكأن الماء يريه انقلاب الآيات، فإن الوحي ينزل في الأرض الخبت اللينة الطيبة، وينبو عن الجبل، فقد كنت عاليا في زمن الخضوع للوحي والإذعان للآيات الربانية، فعلاك الماء فصرت كالزبد الذي يذهب جفاء وبقي ما ينفع الناس.

والقرآن لما نزل هو في أصله والغاية منه هداية الناس ونجاتهم، ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]، لكنه بضد ذلك لمن كفر ولم يقبل هدى الله الذي أنزله، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، ومن العجب تقابل الشفاء والشقاء في القرآن الكريم إذا بلغت الرسالة وقامت الحجة، فعن قتادة قال: "ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا"[(١)].

والبلاغ حصل بالقرآن فهو كالماء العذب، وفي عكسه فإن الماء المالح الأجاج لا يحصل به الري، وكذلك الآيات القرآنية مع من لا يؤمن، فهي لا تغني عنه شيئا، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ

(١) البقاعي، "نظم الدرر"، ٤/ ٤١٩.

وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وكما أنهم يأخذون من القرآن ولا ينتفعون فهم كالشارب من الماء لا يروى ولا ينتفع، والمتأمل في جزاء الكفار في النار يجد من عذابهم شرب الحميم، قال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۖ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۖ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٦]، فهو وإن كان شكلا من العذاب إلا أنه يحمل دلالة انقلاب ماء الرحمة إلى عذاب، وتضمين دلالة الماء في جزاء الكفار لا يقف عند هذا الحد، بل في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩]، أي لهم نصيب كنصيب أصحابهم من المكذبين، ولهم جزاء كجزائهم، وعبر عن ذلك بلفظ "الذنوب" بفتح الذال، وأصل الذنوب الدلو الملأى ماء، وفي الحديث: "فأتى بذنوب من ماء"، فإن لم تكن ملأى فهي دلو، ثم عبر به عن النصيب، قال علقمة:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب

ويجمع في القلة على: أذنبة، وفي الكثرة على: ذنائب[1]، واستعارة الذنوب للنصيب تدل على تشبيه آخر، هو أن جزاء الظالمين كالماء، ولهؤلاء نصيب وجزء من هذا الماء سيصلهم ما داموا على طريق الظلم، فلا يستعجلون، وهذا ما يؤيد ما ذهبت إليه الباحثة من بلاغة التقابل العكسي بين المطر ومكذب الوحي.

(١) ينظر: "الدر المصون"، ١٠/ ٦١.

الخاتمة:

وبعد تحليل الخطاب القرآني الذي يقرن بين نزول الوحي ونزول المطر، وتأويل ذلك عبر منهج التأويل التقابلي نخلص إلى ما يلي:

- يجمع التقابل عناصر التشبيه المتفرقة في السياق.
- تختص الصيغة الصرفية (أنزل/ نزل) بسياق الوحي والمطر المثمر عند التقابل.
- يكشف التقابل بين الوحي والمطر أن الأسماء الواردة للوحي تشبه تلك التي وردت في المطر كالرزق والرحمة والبشرى ونحوها.
- إرهاصات البدء تباشير القدوم متجانسة في سياق الوحي والمطر، ذلك أن الرياح تتقابل مع الرسل، وفيها من الخير والبشارة ما تحمله الرسل في مهمتها.
- يتقابل القلب الذي هو محل الوحي مع الأرض التي هي محل المطر، وما في القلب من أوردة وأوعية للعلم والمعرفة بما في الأرض من شعاب وأودية.
- كل صورة جزئية للتشبيه تعطي دلالة مستقلة في سياقها الذي وردت فيه.
- تكتمل الصورة البيانية للمطر المثمر في مقابل الوحي المبارك عند النظر إلى تلك السياقات مجتمعة.
- التأويل التقابلي يكشف عن مكونات خفية للتشبيه كامنة في المسارات الإنتاجية الذهنية للمتلقي.
- ترتبط الصورة القرآنية بالصورة الحديثية، ويدل على تماسك خطاب الوحي وإعجازه، مما يقوي حجاجية البيان.
- يمكن اكتشاف أشكال جديدة للتشبيه حسب ما يقتضيه السياق مقترنا بالخلفيات المعرفية والثقافية للمتلقي.
- يمكن بناء التشبيه عبر استراتيجية البازل التي تعني إعادة ترتيب القطع المتفرقة، ويمكن اكتشافها عبر التأويل التقابلي.

- الصورة الذهنية قد تكون سابقة للبنية اللفظية عند المتلقي، فيحيل إليها التشبيه بعناصره المتعددة.
- يعطي التشبيه دلالة عكسية عند عكس الصورة، مما يدل على استغراق المعنى البياني.
- جاءت صورة المطر والوحي متكاملة في الحديث متفرقة في القرآن، وقد تكون جميع الصور الحديثية مذكورة في القرآن على نحو ما، فالسنة وحي رباني مفسر للقرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

ابن جني، أبو الفتح عثمان. "الخصائص". محمد علي النجار. (ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. "إعلام الموقعين عن رب العالمين". (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ).

الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد. "جمهرة اللغة". علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه إبراهيم شمس الدين. (ط١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م).

بازي، محمد. "نظرية التأويل التقابلي". (ط٢، عمان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م).

البقاعي، برهان الدين. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". خرج آياته ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي. (ط٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٣٢هـ).

الثعالبي، أبو منصور. "فقه اللغة وأسرار العربية". شرحه وقدم له ووضع فهارسه د. ياسين الأيوبي. (ط٣، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠١م).

جلغوم، عبد الله بن إبراهيم. "المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم بالرسم العثماني". (ط١، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ٢٠١٥م).

الجوزية، ابن القيم. "الضوء المنير على التفسير". تحقيق صبري سلامة شاهين. (ط٢، الرياض: دار القبس للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ).

الحملاوي، أحمد. "شذا العرف في فن الصرف". ضبطه وشرحه ووضع فهارسه د.

محمد أحمد قاسم. (صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ).

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". قدم له: عبد الله بن عقيل ومحمد العثيمين، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق. (ط١، بيروت، لبنان: دار ابن حزم، ٢٠٠٣م).

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون". تحقيق د. أحمد محمد الخراط. (ط٣، دمشق: دار القلم، ٢٠١١م).

ضيف الله، السعيد. "نظرية التأويل التقابلي، الانبثاق التصوري وآليات التجسيد النصي، رؤية في مشروع الباحث المغربي محمد بازي". (دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد ٣، العدد ٨، ديسمبر، ٢٠١٨م).

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر – د عبد السند حسن يمامة. (ط١، القاهرة، مصر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ٢٠٠١م).

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. "فتح الباري بشرح صحيح البخاري". تعليق: العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. (ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م).

عيد، د. عريب محمد. "الخطاب النبوي خريطة البيان العربي، دراسة في اللسانيات النفسية والاجتماعية". (ط١، عمان، الأردن: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م).

الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير. "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل". تحقيق سعيد الفلاح. (ط٣، تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١١م).

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. "الكامل". تحقيق د. محمد أحمد الدالي. (ط٤، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٤م).

المرادي، الحسن بن قاسم. "الجنى الداني في حروف المعاني". دراسة وتحقيق أحمد خليف الأعرج. (ط٢، بيروت، لبنان: دار ابن كثير، ٢٠٢١م).

Bibliography

Al-ʿAsqalani, Ahmad bin ʿAli bin Hajarr. "Fath Al-Bāri be-Sharh Sahih Al-Bukhari". Commentary by the scholar Sheikh Abdul Aziz bin Abdullah bin Bāz, and the scholar Sheikh Abdul Rahman bin Nasser Al-Barrak, edited by Abu Qutaibah Nazarr Muhammad Al-Faryābi. (4th ed., Dar Taiba for Publishing and Distribution, 2011).

al-Azdi, Abu Bakr Muhammad ibn al-Hasan ibn Duraid. "Jamharat al-Lughah". Commented on, annotated and indexed by Ibrahim Shams al-Din. (1st ed., Beirut, Lebanon: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 2005).

al-Baqāʿi, Burhan al-Din. "Nizām al-Durarr fi Tanāsub al-Ayāt wa al-Sur". Its verses were extracted and its annotations were added by Abdul Razzaq Ghalib al-Mahdi. (4th ed., Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1432 AH).

Al-Gharnāti, Ahmad bin Ibrahim bin Al-Zubair. " Malāk al-Taʾwīl al-Qāṭiʿ be-Dhawi al-Ilḥād wa-al-Taʿṭīl fī Tawjīh al-Mutashābih al-Lafẓ min āyi al-Tanzīl ". Investigation by: Saʿeed Al-Falāh. (3rd ed., Tunis: Dār Al-Gharb Al-Islami, 2011).

Al-Hamlāwi, Ahmad. " Shadhā al-ʿArf fī Fann al-Ṣarf ". Edited, explained and indexed by: Dr. Muhammad Ahmad Qasim. (Sidon, Beirut: Modern Library, 1425 AH).

Al-Jawziyya, Ibn al-Qayyim. " al-Ḍawʾ al-Munīr ʿalá al-Tafsīr ". Investigated by: Sabry Salama Shahin. (2nd ed., Riyadh: Dar al-Qabas for Publishing and Distribution, 1436 AH).

Al-Mubarrid, Abu Al-ʿAbbas Muhammad bin Yazid. "Al-Kāmil". Investigation by: Dr. Muhammad Ahmad Al-Dali. (4th ed., Beirut - Lebanon: Al-Risala Foundation, 2004).

Al-Murādi, Al-Hasan bin Qasim. "Al-Janā Al-Dāni fi Hurouf Al-Maʿāni". Study and investigation by: Ahmad Khalif Al-Araj. (2nd ed., Beirut, Lebanon: Dar Ibn Kathir, 2021).

Al-Saʿdi, ʿAbd al-Rahman bin Nasir. " Taisīr al-Karīm al-Raḥmān fī Tafsīr Kalām al-Mannān". Foreword by: ʿAbdullah bin ʿAqeel and Muhammad al-ʿUthaimeen, investigated by: ʿAbd al-Rahman al-Luwaihiq. (1st ed., Beirut - Lebanon: Dar Ibn Hazm, 2003).

Al-Sameen al-Halabi, Ahmad bin Yusuf. "Al-Durr Al-Maṣoun fi ʿUlum Al-Kitāb Al-Maknoun". Investigation by: Dr. Ahmed Muhammad Al-Kharrat. (3rd ed., Damascus: Dar Al-Qalam, 2011).

al-Ṭabarī, Abū Jaʿfar Muḥammad ibn Jarīr al-Ṭabarī. "Jāmiʻ al-Bayān ʻan Taʼwīl āyi al-Qurʼān". Investigated by : Dr ʻAbdullāh ibn ʻAbd al-Muḥsin al-Turkī In cooperation with: The Center for Islamic Research and Studies at Dar Hijr - Dr. Abd Al-Sened Hassan Yamama. (1st ed., Cairo, Egypt, Dar Hijr for Printing, Publishing, Distribution and Advertising, 2001).

al-Thaʿālibi, Abu Mansour. "Fiqh al-Lughah wa Asrar al-ʿArabiyyah". Explained, foreword and indexed by: Dr. Yasin al-Ayyubi. (3rd ed., Sidon, Beirut: Modern Library, 2001).

Bāzi, Muhammad. "The Theory of Comparative Interpretation" (in Arabic). (2nd ed., Amman, Jordan: Dar Kunuz al-Maʿrifah for Publishing and Distribution, 2020).

Ḍaif Allāh, al-Saʻīd. " The Theory of Contrapuntal Interpretation, Conceptual Emergence, and Mechanisms of Textual Embodiment: An Insight into the Project of the Moroccan Scholar Mohammed Bazi". (Dafātir Makhbar al-Shiʻrīyah al-Algeria, volume 3, issue 8, December, 2018).

ʿEid, Dr. ʿArib Muhammad. "The Prophetic Discourse: A Map of Arabic Rhetoric, a Study in Psychological and Social Linguistics" (in Arabic). (1st ed., Amman, Jordan: Dar Al-Thaqafa for Publishing and Distribution, 2015).

Ibn Jinni, Abu al-Fath Uthman. "Al-Khasāʾis". Investigated by: Muḥammad ʻAlī al-Najjār. (4th ed., al-Hayʼah al-Miṣrīyah al-ʻĀmmah lil-Kitāb).

Ibn Qayyim al-Jawzīyah, Muḥammad ibn Abī Bakr ibn Ayyūb ibn Saʻd Shams al-Dīn. "Iʻlām al-Muwaqqiʻīn ʻan Rabb al-ʻĀlamīn". (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1411 AH)

Jalghoum, ʿAbdullah bin Ibrahim. " al-Muʻjam al-Mufahras al-Shāmil li-Alfāẓ al-Qurʼān al-Karīm be-al-Rasm al-ʻUthmānī ". (1st ed., Tafsir Center for Quranic Studies, 2015).

١٣٨
١٩٦

The Islamic University Journal of Arabic Language and Literature

Issue : 15

Jan - Mar 2025

part 2